المكتبة العربية وفهارسها

للأستاذ محمد قنديل البقلى

لا شك فى أن العرب فى جاهليتهم لم تكن لهم ثمة التفاتة إلى المكتبة ، إذ لم تكن الكتابة قد عرفت ولم يكن ثمة قارئون ، وحين كتب للكتابة العربية أن تظهر ، أخذ عصر الكتابة يبدو فى الأفق ، وكان التدوين الذى سجل ما سجل مما قاله القائلون ، وأكبر الظن أن هذا التدوين الأول كان مقصوراً على الحكمة تقال ، والبيت من الشعر ينظم ، أو الحادثة ذات القيمة تسجل . من أجل هذا لم يكن ما يحفظ من هذا المدون بالشىء الكثير ، ولم يكن للمكتبة العربية بمعناها المعروف وجود ، اللهم إلا إذا عددنا هذا القليل المدون ، الذى كان يرجع إليه كلما كان الاحتياج إلى ذلك ، نواة لتلك المكتبة العربية .

هذه الأقوال والأحداث كانت للناس بها عناية ، وهذه العناية جرتهم إلى نوع من أنواع الحفاظ على هذا المدون ، وهذا الحفاظ اقتضى لا شك مكاناً مأموناً يقوم عليه أمين ، يعرف ما بين يديه .

وهكذا كانت صورة تلك المكتبة العربية الأولى ، إلا أننا لا نملك نماذج من ذلك غير تلك النقوش على الأحجار التى تركت لنا عن عصور متقدمة .

ولما أظل الإسلام الجزيرة العربية وطالعهم رسول الله محمد ﷺ بالقرآن الكريم ، وكانت تلك الدعوة العامة التى طوت تحت لوائها شعوب الجزيرة العربية على اختلاف قبائلها ، ثم طوت بعد ذلك شعوباً أخرى مختلفة ، وفى ظل تلك الدعوة السماوية أخذ التدوين يرسى خطاه ، وأخذ الكاتبون يزدادون ويكثرون ، وأخذت الرقاع والصحف تتداول ، فكان على رأس ما دون القرآن الكريم ، دوّن على الرقاع والصحف ، ولقد حفظت تلك الرقاع والصحف عند السيدة عائشة ، رضى الله عنها وكانت شبه الأمين عليها إلى أن كانت أيام عمر ثم عثمان حين اجتمع المسلمون على مصحف إمام .

وما نظن أن التدوين فى العصر الإسلامى الأول وقف عند تدوين القرآن الكريم فحسب . بل تناول معه موضوعات أخرى من الأحداث التى كانت مرجع كتاب السير فيما بعد ، وإن كان الاعتماد لم يكن مقصوراً على التدوين بل كان جله يرجع إلى ما تعيه الملكات الحافظة ، أعنى الرواة والحافظين ، ولكن الذى لا شك فيه أن هذا القليل الذى دون كان مثل القليل

الذى دوّن أيام الجاهلية ، له أمكنته التى حفظ فيها وله الأمناء الذين تولوا حفظه .

تلك صورة المكتبة العربية كما قلت ، فى نشأتها الأولى ، بدت فى الجاهلية ضئيلة كل الضآلة واتسعت مع مجئ الدعوة الإسلامية على يد سيدنا محمد ﷺ شيئا فشيئا ، حتى كانت الخلافة الأموية ، وكتب للإسلام أن تثبت قواعده وتتمكن أركانه ، وكتب للدولة الإسلامية أن تكون دولة بمعناها الكامل ، لها ديوانها العام ولها دواوينها الخاصة ، ولها ولاياتها ولها ولاتها ولها بعد ذلك كتّاب يكتبون بين يدى الخلفاء والرعية ، يكتبون لأنفسهم ماتجود به قرائحهم من علم وأدب ، وكتّاب من الخاصة يكتب بعضهم إلى بعض .

كان هذا التدوين الواسع وراءه مدونات واسعة ، ولم تكن تلك المدونات فى جملتها ملكاً خاصا بل كانت ملكاً عاما ، أعنى تملك الدولة فيه حقاً وتملك الرعية فيه حقاً ، ومن حق هؤلاء وهؤلاء أن يرجعوا إليه ، وكانت هذه هى الصورة الثانية للمكتبة العربية ، غير أنها كانت صورة غير صورتها فى العصرين الأولين الجاهلى والإسلامى ، يملك الأفراد منها شيئا وتملك الدولة منها شيئا ، وكان ما يملكه الأفراد هو المكتبات الخاصة وما تملكه الدولة هو المكتبات العامة .

حتى إذا كانت أيام الدولة العباسية استقر للمكتبة العربية وضعها وأحست الدولة كما أحس الأفراد معها أنه لا بد من جمع ما تلك المدونات بجمع ماتملكه الدولة وبجمع ما ينزل عنه الأفراد لتكون من هذا وذاك النواة الحقة للمكتبة العربية ، وكان ذلك فيما يبدو بين القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فيحدثنا ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) عهد تلك المكتبة العامرة ، مكتبة بخارى التى كان يختلف إليها ، فنراه يقول : « فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته من بعد » .

وبعيد أن تكون مكتبة بخارى هذه العظيمة التى جمعت الكثير الذى أذهل ابن سينا وأقر أنه لم يكن قد رأى من ذلك شيئا . هذه المكتبة العظيمة التى احتشد لها هذا الحشد الكثير من الكتب ، بعيد أن تكون قد كونت فى يوم وليلة ولا فهرست فى يوم وليلة . أعنى أن وجودها لاشك تقدم على وجود ابن سينا بمدى بعيد ، وهذا مايؤكد ماأقول به من أن المكتبة العربية بدأت فى وضعها الطبيعى مع أواخر القرن الثالث الهجرى وأنها قبل ذلك كان لها وجود أيضا ، ولكنه وجود يختلف عن هذا الوجود الكبير الذى أحسسناه فى مكتبة بخارى ، وأكاد أقطع أن المكتبة العربية مع ظهور الدولة العباسية (١٣٢ هـ) أخذت تثبت الخطوة الأولى من خطواتها ، وأنها مع مسير هذه الدولة كان مسيرها هى أيضاً ، واستقرت أوضاعها شيئا فشيئا مع توالى

الخلفاء . ولا ننسى هنا ماكان للمأمون العباسي (١٧٠–٢١٨ هـ) من بيت الحكمة في بغداد ، وكان هذا البيت خزانة للكتب ، يقال إن المأمون أمر بترتيبها وتبويبها في فهارس ؛ تسهيلاً لمراجعتها .

وهكذا كتب للمكتبة العربية أن تنمو وتستقر مع العصر العباسي في الشرق وتأخذ مستواها بين المكتبات الصحيحة بدليل هذا الفهرست الذي وجده ابن سينا في مكتبة بخارى في بلوغها هذا المستوى العلمي المتبع في مكتباتنا في العصر الحاضر .

وقد رأينا ابن الفوطي في كتابه «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة» [1] يحدثنا أن الخليفة المستعصم (٥٨٨– ٦٥٦ هـ) قصد المدرسة المستنصرية يوم الجمعة ، السابع من شعبان بعد توليه الخلافة بنحو من شهرين ، وكان مع المستعصم في تلك الزيارة الشيخ شمس الدين علي بن النبار ، وكان بتلك المدرسة المستنصرية مكتبة ، فتفقدها الخليفة المستعصم ، وهنا يقول ابن الفوطي : « وأنكر ترتيبها » .

وهذا يعني أن المكتبة لم يكن لها فهارس ، شأن مكتبة بخارى مع أنها أنشئت أيام المستنصر بالله الذي ولي الخلافة من سنة ٥٢٣ إلى سنة ٥٤٠ هـ وأنشأ هذه المدرسة وأنشأ بها تلك المكتبة ، كما يقول ابن الفوطي في كتابه : « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة » كان قد تقدم إلى الشيخ عبد العزيز بن دلف ، الخازن الناسخ الصوفي ، شيخ رباط الحريم ، بالحضور إلى المدرسة المستنصرية وإثبات الكتب واعتبارها كما تقدم المستنصر إلى ولده العادل ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضاً ، فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها .

ولكن هذا لا يعنيني هنا ، بل الذي يعنيني أن المدارس هي الأخرى كانت تضم مكتبات وهذا يحدوني إلى أن أقول : إن نشأة المكتبات كانت مع نشأة المدارس في دواوين الخلافة كما تفيد عبارة ابن الفوطي في وصف المكتبة المستنصرية ، وكما يقول محمود شكري الألوسي : « وفي جنبها من جهة الغرب دار للكتب التي يجتمع مثلها في غير هذا المحل كثرة ونفاسة ، وقد انفرد كل فن بمحل منها ، وكانت فهارس الكتب عدة مجلات ضخام [2] .

وكذلك كان في الري بيت للكتب كما روى عن الحسن البيهقي إذ يقول : وأنا أقول بيت الكتب الذي بالري على ذلك دليل بعد ما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ، فإني طالعت هذا البيت — يعني الفهرست — فوجدت تلك الكتب عشر مجلدات [3] »

ويروي محمد راغب الطباخ في كتابه «حلب الشهباء» أن العلامة شرف الدين عبد الرحمن العجمي ، باني المدرسة الشرفية بحلب ، أوقف

(١) ص ٧٦
(٢) مساجد بغداد ومدارسها لمحمد بهجت الأثري
(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي ج ٣ ص ٢١٥

عليها الكتب النفيسة من كل فن من حديث وتفسير وفقه وغير ذلك ، وكان بها أربعون نسخة من التنبيه وجميع كتب الغزالى ، وكانت جميع الكتب مثبتة عند أقاربه فى درج كبير ، فذهب فى محنة تيمور (١).

وكما كان حظ المكتبة العربية فى الشرق كذلك كان حظها فى الأندلس ، فقد أثبت ابن خلدون أن أسماء دواوين الشعر فى مكتبة قرطبة ، عاصمة خلافة بنى أمية فى الأندلس ، كانت مدونة فى ثمانمئة وثمانين صفحة .

ويقول وليم درامر فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » : إن مكتبة قرطبة كانت تشتمل على ستمئة ألف مجلد ، ويقول : إن فهرست أسماء تلك الكتب كان من أربعة وأربعين مجلداً

وإن هذه الكتب العربية الموزعة الآن بين المكتبات الغربية : الآستانة والأهلية بباريس وليدن فى هولندا وغيرها لتدلك على ذلك التراث الضخم الذى كانت تضمه المكتبات العربية عامة وخاصة .

وهذا التراث الضخم هو الذى صرف العرب كغيرهم من الأمم المتحضرة إلى وضع إحصاءات وافية شاملة لعلمائهم وللتصانيف التى ألفوها أو ترجموها فى ضروب العلوم المختلفة .

ثم بعد أن أخذت المكتبة صفتها العامة كان لها فهارس تحصى ما فيها وتبوبه تبويبا يختلف وقصد القاصد ، وكان الخلفاء يعنون بهذه الفهارس ويحثون عليها ، كما كان من المستنصر مع خازن كتب المكتبة المستنصرية .

هذا التمهيد العام الذى بدأت به المكتبة العربية ثم انتهت إلى شكلها العام ، كان مما حفز المؤلفين بعدُ أن يتناولوا المصنفات العربية بالوصف والتعريف ، وأن يتناولوا كذلك العلوم تعريفا وتصنيفا ، وأن يتناولوا كذلك المؤلفين وجهودهم فى تلك التصانيف وكانت هذه الجهود المتلاحقة مما كشف الكثير عن التأليف العربى والمؤلفين العرب وألقى ضوءا كاشفاً على العلوم التى تناولوها تأليفا وتصنيفا ، وأبرز الجهود المضيئة فى ذلك إبرازاً جامعا يسر على المتتبعين للحركة العلمية عند العرب السبيل لتعرف ما كان لهم من جهود علمية ، ثم ما كان لهم من مؤلفات تضمنتها تلك الكتب .

وأكاد أجزم أنه لولا تلك الجهود التى عرفت بالعرب وعلومهم على مر الأزمان وتتابع الأجيال ، وذكرت تصانيفهم وكتبهم لما انتهينا إلى تلك الجهود التأليفية ولا تتبعنا المؤلفين ومؤلفاتهم هنا وهناك فى شتى مناحى الأرض ، نجمع ما تركوا ولفاتنا أيضا أن نحصى لهم هذا التراث الضخم الذى يملأ المكتبات الشرقية وتضم المكتبات الغربية منه شيئا ليس بالقليل .

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ١٥

هذا التراث الذى نعتز به عربا ويوقفنا على ماكان للأجداد فى شتى ميادين العلم والمعرفة .

ولعل أقدم رجل فيما نعرف ، ممن عنوا بهذا الإحصاء العلمى وتدوينه ، هو أبو الفرج بن إسحاق بن يعقوب بن النديم البغدادى الوراق ، ويعد كتابه الفهرست أو فهرس العلوم من أقدم الكتب الإحصائية عن العلم والعلماء ، بل قد يكون من أفضلها ، فلقد جمع فيه التراث الإسلامى ، كما ضم إليه تصانيف اليونان والفرس والهند التى كتبت بالعربية منسقا ذلك كله على مواضيع مختلفة موضوعاً بعد موضوع ، واصفا ذلك كله وصفا وإن جاء موجزا ، فإن فيه صفة الجمع ولقد انتهى فى كتابه هذا إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، معتمدا فيما جمع وكتب على ماوقع له من تلك الفهارس التى سبقه بها المفهرسون الأول للمكتبات العربية التى ذكرناها .

ولقد طبع هذا الكتاب فى أوربا ، كما طبع فى مصر ، إلا أنه على الرغم من ذلك لا يزال ينقصه شئ لأن الأصل الذى اعتمد عليه ناشره الأول ، المستشرق الألمانى فلوجل ، مبتور غير كامل . ولعل الزمن يسعف الباحثين والمنقبين بنسخة كاملة من هذا الفهرست ، فإن مابين أيدينا منه نافع وجليل .

ثم كان بعد ابن النديم أبو جعفر الطوسى :

(١) فى أسماء الرجال ، وقد طبع فى كلكتا سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٣ م) .

(٢) البيان الجامع لعلوم القرآن .

وهذا الكتاب وذاك وإن كانا على غير نمط الفهرست لابن النديم عامة ، إلا أنهما يتناولان بعض الجزئيات .

ثم كان بعد الطوسى أبو البركات عبد الرحمن الأنبارى (٥١٣ — ٥٧٧ هـ) وللأنبارى فى هذا الميدان كتاب خاص وليس كتابا عاما وهو : « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء »

وعلى نمط الأنبارى كان ياقوت الحموى (٥٧٥ — ٦٢٦ هـ) فقد ترك لنا هو الآخر كتابا خاصا فى التعريف بالأدباء ، هو : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب »

وقريبا من عصر الأنبارى وياقوت كان ابن نقطة أبو بكر بن محمد بن عبد الغنى البغدادى (٥٧٠ — ٦٢٩ هـ) فقد ترك لنا هو الآخر كتابا خاصا هو : « التقييد رواة الكتب والأسانيد » .

وفى ظل هذا العصر أيضا كان جمال الدين القفطى (٥٣٦ — ٦٤٦ هـ) وكان له هو الآخر كتاب خاص فى هذا الميدان هو : « إعلام الأدباء بأخبار الحكماء » .

وعلى نمط القفطى كان ابن أبى أصيبعة (٦٠٠ — ٦٦٨ هـ) بكتابه : « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء »

ولعل ابن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١ هـ) بكتابه : « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » قد جنح شبه جنوح إلى الجمع العام لا الجمع الخاص .

ومن قبل ابن خلكان فى هذا التأليف العام صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد التغلبى القرطبى ، المتوفى سنة ٤٦٢ هـ ، بكتابه : « طبقات الأمم » .

وفى ظل القرون السالفة كانت تواليف أخرى كثيرة منها ماهو شرقى مثل «الوافى بالوفيات » للصفدى (٦٩٦ — ٧٦٤ هـ) «والمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » لابن تغرى بردى (٨٠٣هـ — ٨٧٤ هـ) و « فوات الوفيات »لابن شاكر الكتبى (٨١٣—٨٧٢ هـ) و « تذكرة الحفاظ »للذهبى المتوفى سنه٧٤٨هـ و « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى المتوفى سنة ٩٠١ هـ .

وكان إلى جانب هذا الجهد الشرقى جهد أندلسى يذكرنا بما كان لابن النديم ، وهو «فهرست الكتب والتآليف »لأبى بكر محمد بن خليفة الأشبيلى الأندلسى من علماء القرن السادس الهجري .

ولعل كتاب « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد » للسنجارى شمس الدين محمد بن إبراهيم يعد هو الآخر امتداداً لجهود ابن النديم فى كتابه الفهرست .

وكذلك «القصيدة البائية فى أسماء الكتب العلمية » لشرف الدين محمد بن عمر القدسى المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ،

وكذا « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطاشكبرى زادة المتوفى سنة ٩٩٨ هـ .

ولعل خاتمة هذه الجهود كلها هو الكتاب الحافل الذى وضعه حاجى خليفة (١٠٠٤— ١٠٦٧ هـ) والذى ذيله أحمد حافظ زادة المتوفى فى سنة ١١٨٠ هـ ، فضم إليه ، أى جهود حاجى خليفة ، الكتب التركية والفارسية التى عرفت بعدُ بكشف الظنون .

وقد ضم المستشرق الألمانى فاوجل هذا الذيل إلى الكشف كما ضم إليه برنامج الكتب المتداولة فى بلاد المغرب ، وكذا فهرست السيرطى ، ثم ستةوعشرين فهرساً للمكتبات الموجودة فى مصر ودمشق وحلب ورودس والآستانة وكذا فهرست ابن خير ، فجاءت هذه الطبعة بحق طبعة جامعة شاملة يكاد يغنى بها القارئ ويكاد يفيد حقاً من محتوياتها المختلفة .

ثم لاننسى هذا الجهد الذى صنعه إسماعيل البغدادى ، بكتابه : « هدية العارفين » الذى ترجم فيه للمؤلفين الذين وردت أسماؤهم فى كتاب : الكشف .

وهذه الجهود كانت بعدها جهود أخرى حديثة منها : فهارس المكتبات العامة فى البلدان شرقاً وغرباً ، ومنها كتب تناولت المطبوع مثل كتاب : «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع »لفنديك ، و « فهرس المطبوعات العربية » لسركيس .

ثم لا ننسى كتباً أسهمت فى هذا الحقل إسهاما كبيرا يكاد يجمع بين هذه الجهود كلها منذ أن كان ابن النديم المؤلف الأول فى هذا الصدد، إلى أيام حاجى خليفة ، ومن هؤلاء : جورجى زيدان فى كتابه : « آداب اللغة العربية » ولويس شيخو فى كتابه : « الأدب العربى فى القرن التاسع عشر».

هذا إلى جهود أخرى تناولت جزئيات مثل «تاريخ الصحافة العربية» للكونت دى طرازى و«تاريخ الصحافة العربية » لإبراهيم عبده ، تاريخ الصحافة العراقية» لإبراهيم الحسنى ولعل الزركلى فى كتابه : « الأعلام » يعد من المؤلفين فى هذه الحلبة .

محمد قنديل البقلى